

المحاضرة الثانية: مدارس الأدب المقارن: المدرسة الفرنسية

الأستاذ عدنان فوزيل

تعتبر المدرسة الفرنسية التقليدية أول مدرسة منهجية في الأدب المقارن، وأقدمها وأشهرها، و لعلّ توظيف مصطلح " المدرسة" يوحي بأنّها توجه قائم على أسس وقواعد تسيير وفقها، و «يعد العصر الرومنطقي في فرنسا، هو الأكثر إلحاحا لهذه الحاجة، كان هو الذي شهد ولادة الأدب المقارن. وكذا البدء مع "سانت بوف" الذي تبناها من جان جاك أمبير الذي وضع دروسا لتلامذته تحت عنوان "تاريخ الأدب المقارن"¹.

فالرومانسية إذن قد ساهمت في ظهور المدرسة الفرنسية، إذ اتسمت بسماتها خاصة في اعترافها بالآخر، وكذا محاولة فهمه ما فتح المجال أمام فعل " المقارنة"، كما نجد أيضا أن الفضاء الاستراتيجي الفرنسي، والتاريخ التوسعي لمستعمراتها، وجهود "فرديناند برونتيير" "Ferdinan Brenetier" الذي كان يلقي محاضراته من منبر المدرسة العليا للأساتذة (Ecole Supérieure Normal) وجهود تلميذه "جوزيف تكست" "Josef Text"... قد ساعد في بروز هذه المدرسة².

¹ - ماريوس فرنسوا غويار: الأدب المقارن، ص 11.

² - ينظر: - سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن- دراسة منهجية، ط1، المركز الثقافي العربي، 1987، ص55.

وتوضح اتجاه هذه المدرسة مع ظهور أول كرسي للدراسات المقارنة وأول مجلة للأدب المقارن، وذلك سنة 1921 حين كتب "فرديناند بالدينسبرجر" مقالا بعنوان "الكلمة والشيء" "Le mot et la chose" الذي يعد أول عمل تنظيري وتاريخي للمدرسة الفرنسية، وهو يرى أن الأدب المقارن قائم على فكرة الانتشار، يتعدى الحدود الوطنية واللسانية متبنيا تلك العلاقات التي خلفها التاريخ الأدبي...¹

كما نجد أيضا بول فان تيينم (Paul Van Tieghem) الذي يرى أن الأدب المقارن يدرس اللّمسات المشتركة لعدة آداب² فظل يقدم مدخلا للدراسات المقارنة في كتابه "الأدب المقارن" (1931). كما ساهمت مجلة "الأدب المقارن" وكتب سلسلة "خزانة مجلة الأدب المقارن" في نشر مبادئ وأهداف بالدينسبرجر ورفاقه مع اختلاف وجهات نظرهم المبدئية والمنهجية³.

ونجد أيضا "فرنسوا غويار" في كتابه "الأدب المقارن" الذي يمثل الكلمة الأخيرة في المنهج الفرنسي عند الجيل الأول من رواده، لأنه صدر بعد أن تحدّدت معالم المنهج الأمريكي في الأدب المقارن⁴.

¹ - ينظر: - سعيد علوش: م. س، ص 56 - 59.

² - ينظر: ماريوس فرنسوا غويار: م. س، ص 07.

³ - ينظر: سعيد علوش: م. س، ص 61.

⁴ - يوسف بكار و خليل الشيخ: الأدب المقارن، ص 80.

و«خلاصة ما دعا إليه أولئك الرواد - وجان ماريه كاريه فيهم- أن الأدب المقارن هو دراسة علاقات التأثير بين الأدب الفرنسي والآداب الأوروبية الأخرى، ودراسة الصلات بين الآداب القومية المختلفة دراسة تاريخية مؤيدة بالوثائق والمصادر، وكأن الأدب المقارن - والحال هذه- فرع من فروع تاريخ الأدب.

وهذا هو الذي يطلق عليه "التيار التقليدي" أو "التيار التاريخي" في المنهج الفرنسي، أي تيار الجيل الأول جيل الرواد¹ لذلك سميت المدرسة الفرنسية بالمدرسة التقليدية، والمدرسة التاريخية، منه فقد " اختار الفرنسيون بشكل مسبق الانحياز إلى تاريخ الأدب بدلا من النقد الأدبي في تخطيطهم لمنهج الأدب المقارن، فالأدب المقارن يدرس تاريخ الأدب المقارنة"²، وبما أنها تركز على التاريخ فهذا يعني أنها تركز على كل ما هو خارجي لتحديد عملية التأثير والتأثير، أي أنها تنطلق من خارج النص وليس من داخله.

لقد وضعت المدرسة الفرنسية «أسس البحث المتين: فتبنت ضرورة التسلسل الزمني الدقيق، بطريقة مثلى قبل أي تفسير، حيث لا تكمن الصعوبة الأساسية في وضع التواريخ، وإنما تكمن في اختيارها، وتبنت ضرورة التنقيب فوق الحدود القومية بالاعتماد على معارف لغوية

¹- يوسف بكار و خليل الشيخ: الأدب المقارن ، ص 80.

² - عز الدين المناصرة، مقدمة في نظرية المقارنة، ص 10.

جيدة (مع تفضيل اللجوء إلى النصوص الأصلية دوما بدلا من الاعتماد على الترجمات)، وهذا راجع إلى الانتقادات التي طالت الترجمة بوصفها " خيانة للنصوص الأصلية"

وتبنت أخيرا ضرورة تجميع جملة من الأحداث متصلة - مستمدة من حضارة- غالبا ما تكون مهمة¹. أي اختيار التواريخ ودراسة النصوص في لغاتها الأصلية، فقد «ربط الفرنسيون الدراسة المقارنة وفقا لهذا بتواريخ الآداب وبالصلات التاريخية والأدبية بين الآداب المدروسة مشددين في ذلك مع شرط وقوع الصلات في ما بين هذه الآداب أولا، وأن تكون لغة هذه الآداب مختلفة ثانيا، ووقع التأثير والتأثر فيما بينها ثالثا»² فالمدرسة الفرنسية تشترط - إذن- اختلاف اللغة، ووجود صلة تاريخية بين الآداب المدروسة، والتركيز على ثنائية التأثير والتأثر.

من بين النقاط المهمة أيضا التي يمكن أن نركز عليها فقد رافق انتشار النزعة التاريخية في الدراسات الأدبية المقارنة نزعة أخرى، متمثلة في النزعة الوضعية «وقد عبرت النزعة الوضعية عن نفسها في الأدب المقارن من خلال دعوة "المدرسة الفرنسية التقليدية" إلى اعتماد المنهج التجريبي في دراسات التأثير والتأثر، بل البرهنة على وجوده بالأدلة والوثائق الملموسة التي لا

¹ بير برونييل وأ. م روسو وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ص 103.

² - نجم عبد الله كاظم: في الأدب المقارن - مقدمات للتطبيق، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 2008، ص 09.

تدع مجالا للشك. شكل هذا التواءم بين النزعتين التاريخيّة والوضعيّة أساسا نظريا لما يعرف بالمدرسة الفرنسيّة»¹.

ويتحدد مفهوم النزعة الوضعية على أنّها تيار فلسفي يرى أنّ المعرفة الصحيحة تأتي فقط من خلال التجربة الحسية والتحقق العلمي، وهي عكس الميتافيزيقا التي تعتمد على الحدس والتعالي، فالمعرفة الصحيحة - حسب المدرسة الفرنسيّة- هي التي تستند إلى قاعدة تجريبية، وليست تلك التي تقوم على الحدس والتخمين، منه فقد " اختار الفرنسيون مقولة التأثير والتأثر شرطا للمقارنة ووضعوا شرطا لها وهو وجود التأثير والتأثر افعلي، فإن وجد التشابه بين عمليّن ليس بينهما علاقات تاريخية مؤكدة رفضت المقارنة"² لذلك فقد دعوا إلى تطبيق المنهج التجريبيّ على الأدب المقارن، من خلال البرهنة على وجود التأثير والتأثير بمختلف الأدلة والوثائق التاريخية الملموسة...

وقد «وسعت المدرسة الفرنسية متسلحة بمنهجيتها هذه دائرة التراث الأدبي القابل للاستغلال، وحتى الشائع منه، فاستخرجت بذلك من لامبالاة البحث المغلق كلا من المراسلات... والنصوص المنشورة خارج الحدود القومية وذكريات الترحال أو شهادات اللقاءات والأحاديث.

¹ - عبده عبود: الأدب المقارن - مشكلات وآفاق، د. ط، من منشورات اتحاد الكّاب العرب، 1999، ص 27.

² - عزالدين المناصرة، مقدمة في نظرية المقارنة، ص 10.

على الرغم من أن هذه الوثائق لا ترقى إلى مستوى الروائع الأدبية، إلا أنها سدت نقائص عديدة، وعمقت بعددها وتنوعها الرؤية التي عادة ما تفتقر إليها الأبحاث القومية، فكان يكفي أن يمتد حب الاستطلاع إلى الخارج بانتظام بدلا من الاحتشام الذي يتفوق فيه². فهي إذن تهتم بكل الأعمال الأدبية... التي من شأنها أن تخدم الأدب المقارن.

وعموما، يمكن لنا تلخيص مبادئ المدرسة الفرنسية للأدب المقارن في النقاط التالية:

- 1- أن تكون الدراسة بين أدبين قوميين أو أكثر، ولا تكون إلا في مجال الأدب، (إذا فالمقارنة عند هذه المدرسة محصورة فقط في الأعمال الأدبية) مع توافر شرط القومية، إذ لا تجوز المقارنة بين عملين أدبيين من نفس اللغة مهما كان الاختلاف العرقي أو الجغرافي.
- 2- أن يتوافر الرابط التاريخي بين العملين الأدبيين: إثبات تاريخي على وجود علاقة تاريخية بين الأدبين (احتكاك تاريخي)، مثال الاستعمار، ولقد " ظلت العوامل الخارجية التاريخية هي التي تُدرس أكثر من النص الأدبي فتوغلوا في التاريخ والفلكلور والاقتصاد والسياسة، بمعنى آخر درسوا العلاقات الخارجية للنص الأدبي وأهملوا العلاقات الداخلية في النص الأدبي"¹

²- بير برونيل وأ. م روسو وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ص 103.

¹ - عزالدين المناصرة، مقدمة في نظرية المقارنة، ص 11.

3- أن يكون المؤثر ادبا موجبا والمتأثر أدبا سالبا، وهذا يعني ارتباط عملية التأثير والتأثر بالاستعمار، ويصبح بهذا أدب المستعمر أدبا موجبا دائما. نقد المدرسة الفرنسية:

طبعا ككل المدارس، تعرضت المدرسة الفرنسية لانتقادات لازعة من طرف الكثير من الباحثين والدارسين، وهذا لوجود ثغرات معرفية وتوجهات أيديولوجية تضمنت شروطها وحدود عملها في حقل الأدب المقارن، ونذكر منها:

- غياب الوضوح في تحديد موضوع الأدب المقارن ومناهجه؛

- اهتمت بالتاريخ عوض الاهتمام بالآداب، فتحول الباحث في الأدب المقارن إلى مؤرخ يجمع الوثائق والمصادر... وليس إلى أديب مقارن نتيجة استبعاد المدرسة للجوانب الجمالية والذوقية من مضمار الدراسات المقارنة، أي أنها أقامت جدارا مصطنعا بين الجوانب التاريخية وبين الجوانب الجمالية...¹.

أي أنها أهملت الأبعاد الداخلية للأدب، ومن ثم فهي تعمل على إقصاء المقارنات التي لا تحتكم إلى مرجعية تاريخية تدل على التأثير المتبادل بين الآداب حتى وإن كانت هناك تشابهات كثيرة بين النصوص التي يراد مقارنتها.

¹ - ينظر: - يوسف بكار و خليل الشيخ: الأدب المقارن، ص 81.

- أنّها بالغت في ربط الأسباب بالمسببات، ذلك أن الآداب مختلفة عن العلوم التجريبية، لذلك فقد هاجم النقاد الجدد مقولة السببية «بعنف فهم يرون أن السببية الحتمية التي تقول أنه لولا الفواصل أ، ب، ج (المحيط الأدبي) لما ظهر العمل الأدبي (س) على هذه الصورة شكلا ومضمونا يمكن تطبيقها على العلوم الطبيعية ولا يمكن تطبيقها على الفن الأدبي، ففي العلوم الطبيعية يمكن تجريب هذه العوامل مع تعديلها وتبديلها على الظاهرة الطبيعية في حين لا يمكن تجريب العوامل مع الظاهرة الفنية الأدبية»².

- إن المدرسة الفرنسية تتسم بالتعالي، إذ «خدمت دراسات التأثير نزعة "المركزية الأوروبية" وهي نزعة متعالية توسعية، شكلت مكونا هاما من مكونات العقلية الاستعمارية الأوروبية، وما زالت إلى اليوم تخدم مساعي الهيمنة الثقافية الأوروبية، لقد عززت دراسات التأثير نزعة المركزية والتفوق لدى الفرنسيين والأوروبيين على حد سواء»³.

ولعل كلّ هذه النقائص والانتقادات الموجهة للمدرسة الفرنسية هو الذي أدى إلى ظهور مدارس أخرى، من بينها المدرسة الأمريكية.

² - أحمد شوقي رضوان: مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، ط1، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، 1990، ص 35.

³ - عبده عبود: م. س، ص 30.